

العربية وطن المغرب

لم

تلق «أغادير» بقديمها خلفها ، ولم تقبل بأن تهب نفسها بالكامل إلى جديد عمراني ناصع البياض بلا قلب. نهضت «أغادير» من تحت الأنقاض وبدأ قلبها الموسيقى يدق من جديد ناشراً عزفه المنفرد وصوت غنائه القديم في الجبال والوديان. ينهض قديم أغادير من نومه مع بزوغ الشمس في كل صباح متوجهاً إلى الشاطئ الرملي والبحر المحيط، ليعرض لوحات من فنون القرحة الفولكلورية والتراثية، وليقدم في فضاء المدينة الملون الاحتفال والمهرجان الذي يدل علي القلب الجنوبي الذي لا يتغير بتغير الفصول.

هنا في أعلى الجبل المشرف على أغادير سور وأطلال قلعة بناها «السعديون»، لولاها - يذكر بعض المؤرخين - ما استطاع المقاومون المغاربة إخراج البرتغاليين من جنوب المغرب ولبقوا فيها لسنوات طويلة. وهناك في الأسفل مدينة «أغادير» الحديثة، التي شيدت على بعد حوالي كيلو مترين من المدينة القديمة المدمرة، والتي تفتح ذراعيها كل صباح لساكني الصحراء والقرى المجاورة بعاداتهم وتقاليدهم، وللسائحين الذين تجتذبهم شمس أغادير ورمالها وشواطئها.

طيور النورس البيضاء تحلق فوق شواطئ «أغادير» عاصمة منطقة السوس الأمازيغية. سيارات كبيرة بأرقام أوروبية مجهزة كبيوت

متنقلة ، عبرت مضيق جبل طارق في الشمال ، وقطعت مئات الكيلومترات في اتجاه عاصمة الجنوب ، وحطت رحالها على الشاطئ الرملي المتسع والمحاذي للبحر المحيط. سياحة المخيمات نوع من السياحة قليلة التكاليف يفضلها السائح الأوروبي. إلى هنا في أطراف «أغادير» ، حيث الجبل والشاطئ الرملي والبحر ، يأتي عشاق المنظر الطبيعي الذي لم تمتد إليه يد بشر بسوء للقاء شمس أغادير الحمراء.

يوقف سائق الحافلة محركها ، فأنهض من مقعدي إلى جانب النافذة ، وألقى بنفسي في المنظر الطبيعي الذي لم تمسه يد بشر بسوء. استشعر صوت الصمت لا يقطعه إلا صوت طائر برى وموجة تداعب رمالاً ذهبية ناعمة. أكاد أنصت إلى صوت في داخلي يهتف بي : «اخلع نعليك» ، فوجدتني أقذف بهما في الهواء وأركض في اتجاه زرقة البحر المحيط وحمرة قرص الشمس وبياض النوارس. والبحر أمامي والجبل من خلفي ، أصرخ بأعلى الصوت مردداً اسمي واسم أبي وجدي ، وأنحني إلى الرمال لأكتب أسماء الله الحسنى.

الجمال ، سفينة صحراء العرب والأمازيغ ، قادم من صحراء «تارودانت» و «ترنيت» و «كولين» في شرق وجنوب أغادير. حط الجمل على الرمل بالقرب من سائحة أوروبية سارعت باعتلائه متشبثة بسنامه خشية السقوط لحظة نهوضه. صاحب الجمل صحراوي ملثم الوجه يرتدى ملابس زرقاء ، غادر قرينته الصحراوية النائبة سعياً وراء رزق أوفر في المدينة الساحلية السياحية أغادير.

«حسن أبو الطيب» المرشد السياحي الأمازيغي: الذى يتحدث العربية والأمازيغية والفرنسية، أنظر إلى ملامح وقسمات وجهه وهو يعتذر عن ضعف لغته العربية: فأراه، كما أرى المغرب، سليل حضارتين (إسلامية ومتوسطية) ولغتين (عربية وأمازيغية) وعرقين (عرب وأمازيغ)، ورهين المكان الثالث، الواقع بين مكانين: المغرب وفرنسا. فهل المغربى العربى «حسن أبو الطيب» منقسم على نفسه، أو أنه منفتح على الآخر إلى حد المرض؟

أتذكر عبارة «ألبير كامى»: «نعم لى وطن: إنه اللغة الفرنسية» وأعجب لمراهنات الفرنسيين إبان استعمارهم لبعض بلدان شمال إفريقيا على التمييز بين المغاربة الناطقين منهم بالأمازيغية والناطقين باللغة العربية. وأعجب كذلك لمحاولة وزارة التربية والتعليم الفرنسية منذ أعوام قليلة بعث اللهجات المحلية كالأمازيغية وغيرها وتشجيع انتشارها بين أبناء دول المغرب العربى المقيمين فى فرنسا.

فى المغرب الآن من ينعت اللغة العربية بالضعف والتقهقر ويعتبرها لغة الأبواب الموصدة، بخلاف اللغات الأخرى التى يرونها لغات المستقبل والأبواب المشرعة على مصاريعها. تؤكد الكاتبة المغربية «إكرام عبده» أن العيب ليس فى اللغة العربية حاملة العلوم والآداب والفكر طوال تسعة قرون، والتى كان يمتلكها «ابن رشد» واخترق بها الآفاق، بل العيب فى أهلها الذين لم يكونوا حضناً رعوماً لها يراعونها ويطورونها.

تصرخ المغربية «إكرام عبدى» بأعلى صوت: لا لكل عولمة تستأسد وتستوحش لتلتهم مقوماتنا وخصوصيتنا وهويتنا ولغتنا. لا لكل تصارع لغوى يقصد الإقصاء والتهميش وليس التفاعل. ونعم لكل ترشيح حكومى للوضع اللغوى الفاسد. نعم لكل «سلم لغوى» بتعبير الكاتب المغربى «عبدالكريم الخطيبى»، سلم يولد التعايش والتطور وليس التقاعس والتكلس الفكرى، نعم لكل علاقة لغوية قوامها الاحترام والأخذ والعطاء، ولكل لغة دخيلة تخدم لغتنا العربية ولا تحل محلها. نعم أيضاً لفك العزلة عن اللغة العربية ومعانقتها للمدار اليومى والمعرفى والمؤسساتى ضماناً لكل تطور واستمرارية ولكل وقوف بين الفينة والأخرى لحظة تأملية للكشف عما يعترىها من نقص وثغرات، سعياً لخلق أدوات تحديثها وإنعاشها.

إنها المعضلة التى نجح فى حلها المفكر العربى «ابن رشد»، الذى جمع بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة اليونانية التى كانت تمثل قمة الثقافة الإنسانية المعاصرة فى وقتها. «ابن رشد» - يقول المفكر المغربى «محمد عابد الجابرى» فى حوار أجراه معه الكاتب المصرى الذى أحبه كثيراً «محمد بركات» فى الدار البيضاء - مفكر ومجدد فى الفقه، وكان القرآن الكريم يجرى على لسانه بتلقائية فى كل المناسبات والأحوال، إذ كان يستحضره فى الفلسفة والجدل وفى كل ميدان من الميادين التى بحث فيها فى الثقافة العربية الإسلامية، وفى الثقافة الأوروبية اليونانية، وكانتنا مجمل الثقافة الإنسانية العالية فى ذلك

الوقت. كانت هاتان الثقافتان حاضرتين عند «ابن رشد» معاً بدون تنازع في فكره. ولم يكن يشعر بأى تناقض بين أن يكون فقيهاً مجتهداً ومجدداً وملتزماً بجميع ما يفرضه الدين عقيدة وسلوكاً، وبين أن يكون شارحاً لأرسطو، بل متجاوزاً له في نفس الوقت.

ما حاجتنا إلى «ابن رشد» الآن؟. يجيب المفكر المغربي «محمد عابد الجابري»: إنها حاجة ثقافية وحاجة فكرية في آن واحد، فزحن نحتاج له في العصر الحاضر أكثر من أى شخص أو فكر آخر، ذلك أننا نتحدث منذ قرن من الزمان عن تجديد الفكر العربى، وعما إذا كان هذا الفكر يجب أن يكون أصيلاً أو معاصراً. إن ثقافتنا يجب أن تجمع بين الاثنين، ولكن ليس بمجرد الكلام، بل بالامتلاء الكامل من الثقافة المعاصرة من ناحية، ومن الثقافة التراثية العربية من ناحية أخرى، إذ لا يمكن أن يبدع الإنسان فى غير لغته وثقافته. تعلم ما شئت من الإنجليزية وتاريخها، ومن الفرنسية وفلسفتها، ولكنك لن تكون مبدعاً فى هذه أو تلك. بل لن تكون خلاقاً بحق إلا فى ثقافتنا العربية الإسلامية، شريطة أن تكون قد أحسنت الاطلاع إلى حد الامتلاء من ثقافتك العربية أولاً ومن مفاهيم ومباحث الفكر الأوروبى ثانياً.

«ابن رشد» يمثل للمفكر المغربى «محمد عابد الجابري» ذلك الشخص الذى يطالبنا بأن نحققه باستمرار فى كياننا الثقافى، لأن الذى يقرأ «ابن رشد» ويفهمه بجانب الحضارة العربية الإسلامية لا يمكن - يؤكد «الجابري» - أن يكون متطرفاً ومتعصباً. فـ «ابن رشد» رمز على حرية

الفكر والإبداع كما لا نجدُها عند مفكر أو فيلسوف آخر. لقد كتب «ابن رشد» كتاباً عن المذاهب الأربعة، على رغم أنه مالكي المذهب، ولكنه لم يتعصب لا للمالكية ولا للحنفية ولا لغيرهما من المذاهب، بل كان يقول رأيه في بعض القضايا الفقهية مخالفاً للمالكية. وكتب «ابن رشد» في الطب والفلك فعارض بطليموس وجالينوس وأبو قراط، وجاء بآراء من عنده مستقلاً فيها بشخصيته.

«من العدل أن يأتي الرجل لخصومه من الحجج بمثل ما يأتي بها لنفسه». تلك عبارة «ابن رشد» الذي يقول عنه المفكر المغربي «محمد عابد الجابري»: إن الرجل الذي بلغ هذه الدرجة من العمق في التفكير ومن السماحة في الآراء هو الذي نحتاجه الآن. إنه «ابن رشد» المفكر الحر الملتزم الذي تحتاج إليه ثقافتنا المعاصرة. إنه المثقف الذي يرفع شعاراً واحداً هو الحقيقة.

هكذا يتحدث الحكيم العربي المغربي ساكن الدار البيضاء «محمد عابد الجابري»: نعم.. ثمة همّ عام يشغلني. فأنا أرى أن مدار الأمر كله هو البحث عن الاستقلال التاريخي للذات العربية. أن تكون مستقلاً برأيك أمام أصحاب النظريات والأفكار الحديثة. أن تكون أنت أنت فسي مواجهة العولمة وصدام الحضارات، وهذه النظرية أو تلك في الفكر الغربي والفكر الإنساني بعامة. إن الإنسان العربي الآن بحاجة إلى الاستقلال بالذات، ولكن ليس هو الاستقلال الفج الذي يذهب إلى حد التنويه بالنفس والعجرفة الفارغة، بل هو الاستقلال الفكري، بمعنى

أن يكون الإنسان العربى واثقاً أنه يقف برجليه على أرض صلبة. وأنا أعتقد أنه فى عالم السياسة كما هو فى عالم الفكر نحن بحاجة إلى هذا الاستقلال، فليست ثمة خطة سياسية مثلاً فى العالم العربى، لا للدولة الواحدة، ولا لمجموعة الدول العربية، ونفس الشىء فى الفكر، حيث نرى أن لكل دولة منطلقاتها وسياساتها التعليمية التى تضعها كما تريد، وأحياناً كما لا تريد. ويؤدى بنا هذا إلى أن نقول: إنه لا على مستوى السياسة ولا على مستوى الفكر نجد شخصاً واحداً من بين العرب يقف على أرض صلبة. ليس هناك ذلك الاستقلال الفكرى الراسخ، بل ثمة أفكار وآراء تميل مع الهوى، وتحركها الظروف الآنية والعاجلة والمؤقتة ولا يحركها التاريخ.

يتحدث الحكيم العربى المغربى والناقد للعقل العربى «محمد عابد الجابرى»: إن حاجتنا شديدة إلى تجديد ثقافتنا وإغناء هويتنا والدفاع عن خصوصيتنا ومقاومة الغزو الكاسح الذى يمارسه المالكون للعلم والتقنية والمسخرون لها لهذا الغرض. حاجتنا هذه لا تقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات التى لا بد منها لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والتكنولوجيا، دخول الذوات الفاعلة المستقلة، وليس دخول «الموضوعات» منفصلة المسيرة.

إن أوروبا اليوم تتحدث حديث الخصوصية والأصالة، وتتحدث عن الهوية الأوروبية تعزيزاً لسيرها الجدى على طريق تشييد

الوحدة بين شعوبها وأفكارها ، بخطوات عقلانية محسوبة في إطار من الممارسة الديمقراطية الحقّة ، وهي بذلك تقدم لمستعمراتها القديمة في أقطار العالم الثالث ، نموذجاً صالحاً للاقتداء به بعد ملاءمته مع الخصوصيات المحلية.

ابن بطوطة يشد الرحال إلى الذات العربية

يحكى أن نقاشاً دار بين الجنرال «ديجول» وبين بعض الساسة الفرنسيين حول كيفية الحفاظ على الجزائر المستقلة داخل التأثير الفرنسي، فقال له البعض: يتم ذلك بالإبقاء على قواعد عسكرية. وقال له البعض الآخر: يتم ذلك بإبقاء الاقتصاد الجزائري مستقبلاً مرتبطاً بالاقتصاد الفرنسي. لكن الجنرال «ديجول» أجابهم: لا هذا ولا ذاك، فقط حافظوا على وضع اللغة الفرنسية تحافظوا على الجزائر المستقلة داخل النفوذ الفرنسي.

يكتب «الطاهر بن جلون» الروائي المغربي رواياته باللغة الفرنسية، متحدثاً عن نفسه وتمزقها بين مكانين ولغتين وثقافتين، ومتحدثاً عن المهاجرين من الجنوب المغربي الفقير والمهمل إلى فرنسا، أولئك المقتلعين والمنفيين في آن معاً، الذين يعانون الاغتراب الثقافي واللغوي والروحي.

في روايته «العينان الخفيضتان»، يكتب الروائي المغربي «الطاهر ابن جلون» بالفرنسية عن تغريبة المغاربة في بلاد الفرنجة، وعن عنصرية فرنسا التي تتمثل في مصرع الفتى المغربي «جلالي» عندما اجتاح رجال الشرطة الحي المغربي في باريس، وعن مدام «سيمون» التي تشعر بالخجل لأن بعض الناس في فرنسا اعتاد احتقار من ليسوا

مثلهم ولا ينتمون إلى الدين نفسه.

بالفرنسية يكتب الروائي المغربي «الطاهر بن جلون» عن مأساوية الصراع بين الانتماء إلى المكان الأول «المغرب» وبين الغرق في متاهة المكان الثاني «فرنسا»، بين الحياة الراهنة والماضي، بين باريس وتلك القرية الفقيرة المهملة في الجنوب المغربي.

في رأى الكاتب العربى المغترب «عقل العويط» أن جزءاً من النفس الداخلية لبطلنة رواية الروائي المغربي «الطاهر بن جلون»، صاحبة العينين الخفيضتين، لا يزال معلقاً في شجرة القرية في جنوب المغرب، وأن جزءاً آخر من نفسها الداخلية في الوقت ذاته يتهجى حروف اللغة الفرنسية ويتشرب روح وثقافة فرنسا. إنها الهوة الهائلة في القلب المغربي التى تدفع بطلنة الرواية إلى أن تعلن عن رغبتها العميقة في أن تتم القطيعة بداخلها بين المكانين واللغتين والثقافتين.

يُحكى أن الروائي المغربي «الطاهر بن جلون» الذى يكتب بالفرنسية عندما جاء إلى تونس بدعوة من المركز الثقافى الفرنسى، الذى نظم له لقاء موسعاً مع جمهور تونسي وفرنسي، بمناسبة حصوله على جائزة «جونكور» الأدبية في فرنسا عن روايته «ليلة القدر»، تحدث بالفرنسية. فهل فعل «الطاهر بن جلون» ذلك بحكم وجود جمهور فرنسي بالمركز الثقافى الفرنسى، أو بحكم اختيار واع؟ قالت الأديبة التونسية «خيرة الشيباني» إن «الطاهر بن جلون» في بداية اللقاء ذكر أنه لن يرفض الإجابة عن أى سؤال يوجه إليه ماعدا السؤال حول عدم

كتابته باللغة العربية. الذى سبق أن أجاب عنه آلاف المرات.

الروائى المغربى «الطاهر بن جلون» الذى يكتب بالفرنسية، متهم بأنه يكرس لهيمنة الثقافة الفرنسية على كتاب المغرب العربى، ولمحاولة استقطابها له ككاتب يقدم المجتمع المغربى للقراء الفرنسيين بشكل فولكلورى يدعو للثراء.

هل هى حرب تشنها فرنسا منذ أكثر من أربعين عاماً على العربية فى أقطار المغرب الأربعة؟.. يتساءل «عثمان سعدى» رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية.

فى السنوات الأربع الأولى التى تولى فيها الرئيس الفرنسى «شارل ديغول» الحكم وسبقت استقلال الجزائر، هل أعد للحفاظ على الجزائر المستقلة داخل النفوذ الفرنسى بالمحافظة على هيمنة اللغة الفرنسية داخل الجزائر؟. وهل قام «ديغول» بتوجيه الساسة الجزائريين الذين تسلموا قيادة الثورة بعد اعتقال «أحمد بن بيلا» بأن يكتفوا بتحقيق هدف واحد من الثورة المتمثل فى تحرير الأرض فقط وترك الذات الجزائرية مستعمرة فرنسية من خلال بقاء هيمنة اللغة الفرنسية على الدولة الجزائرية؟ وهل ما حدث فى الجزائر حدث مثله فى المغرب وتونس وموريتانيا؟

ظروف غامضة أحاطت بظهور حركة الفرانكفونية التى تضع فى مشروعها ترقية اللغات الوطنية فى الدول التى تستعمل اللغة الفرنسية، إلا أنها لا تعطى أية ضمانات لحماية تلك اللغات الوطنية

من هيمنة الفرنسية. كان من رأى «المهدي المنجرة» الأستاذ بجامعة محمد الخامس بالرباط أن المدافعين عن الفرانكفونية يعودون إلى الجنرال «ديجول» الذى كان أول من حاول خلق مجموعة فرانكفونية، وعندما فشلت محاولته تلك حاول إيجاد بديل لها، وهكذا تم تشكيل وكالة التعاون الثقافى والتقنى بين فرنسا والدول الناطقة بالفرنسية فى عام ١٩٦٧ ثم عقد أول مؤتمر فرنسى إفريقى فى عام ١٩٧٠ وأخيراً نظمت قمة الفرانكفونية فى ديسمبر عام ١٩٨٥.

لاحظ المغربى «المهدى المنجرة» منذ سنوات أن مفهوم الفرانكفونية كما تطور عبر التاريخ عمل على تقسيم إفريقيا، كما تسبب فى تعطيل خلق مجموعات اقتصادية متجانسة فى القارة السمراء، وأسهم فى الترويج لنموذج تنمية التخلف فيها، وشجع على الاعتماد على «الصدقة» التى تدخل فى إطار الدعم الهزيل والتعاون غير الموجود.

ومنتهم كذلك الروائى الجزائرى «واسينى الأعرج» بأنه فى بداية عام ٢٠٠٠ روج على شاشة التلفزيون الجزائرى لاعتماد أربع لغات: الفرنسية والأمازيغية والعربية الجزائرية والعربية الفصحى، ولكتاب نشر فى فرنسا تحت عنوان «لغات الجزائر» لـ «خولة الإبراهيمى» حفيدة شيخ العربية العلامة الشيخ «البشير الإبراهيمى».

ربما هناك آخرون فى دول المغرب العربى متهمون بالتشجيع على إحداث قطيعة بين المغربى العربى ولغته العربية. فالباحث التونسى «بكار توزانى» قال إن فرانكفونية تونس، وعروبنتها وإسلاميتها

وانتماءها للبحر المتوسط وإفريقيا والمغرب العربى هى المكونات الستة التى تكوّن هوية تونس.

هل المسافة الروحية بين المشرق العربى والمغرب العربى فى الزمن القديم لم تكن كبيرة وشاسعة كما هى الآن؟. فى كتابه «فى التراث»، فرق المفكر المغربى الدكتور «محمد عابد الجابرى» بين عقلانية فلاسفة المغرب العربى ولا عقلانية فلاسفة المشرق العربى، وقال إن «ابن رشد» و «ابن باجة» و «ابن طفيل» هم المدرسة العقلانية فى التراث الإسلامى، وأما «ابن سينا» و «الغزالي» ومتصوفة المشرق فهم المدرسة اللاعقلانية. فى رأى الكاتب المشرقى «محمد الأسعد» أن هذا النوع من التصنيف قام على أساس تجاهل عدد من الوقائع، أولها: أن «ابن رشد» لم يكن إلا تلميذاً «للفارابى» المشرقى، وكذلك الأمر مع «ابن طفيل» الذى لم يترك الأمر غامضاً فى مقدمة كتابه «حى بن يقظان» حين أشار إلى فضل «ابن سينا» على أطروحاته. ويؤكد «محمد الأسعد» أن هذا التداخل والتشابك الطبيعى فى إطار ثقافة واحدة لها جوانبها العقلانية واللاعقلانية ما كان يمكن أن تنتج أطروحة المشاركة والمغاربة، لولا تجاهل أن هؤلاء هم نتاج إطار حضارى واحد وجغرافية بشرية واحدة، وأن تصنيف العقل الجمعي على أساس نزعات فرد ظهر فى المشرق أو فى المغرب فيه من المغالطة الشئ الكثير.

كذلك، ذهبت بعض طرائق البحث الاستشراقى التى ربطت أسماء العلماء العرب بمناطق جغرافية معينة إلى أن لكل منطقة موروثها

المختلف، وإلى شيوع الاعتقاد بغنى بعض المناطق العربية بالموروث الحضارى وفقر بعضها الآخر على أساس من تقسيم جغرافى متعسف. فى سبعينات القرن الماضى تصاعدت أصوات فى المغرب تدعو إلى مقاطعة المشرق ثقافياً بسبب تعاليه وتجاهله وتعامله مع المغرب بدونية، كما ترتفع من وقت لآخر أصوات بعض الكتاب فى المغرب مطالبة بالقطيعة مع ذلك المشرق الذى تشبث به المغاربة دفاعاً عن عروبتهم.

فى اعتقاد الشاعر المغربى «محمد بنيس» أن المرارة المغربية من التعالى المشرقى تزداد، والفصل بين المشرق والمغرب يتسع بشكل مأساوى برغم تكاثر اللقاءات بين المشاركة والمغاربة. والرأى عند الشاعر «محمد بنيس» أن حل هذه الإشكالية لن يتأتى إلا إذا تواضع المشارقة وخطوا خطوات معرفية نحو المغرب الثقافى.

«المرارة المغربية من التعالى المشرقى» كما جاءت فى عنوان مقال للشاعر المشرقى «أمجد ناصر»، تعبر عن نفسها أكثر فى كلمات الشاعر المغربى «حسن نجمى»، التى تجيب عن سؤال العلاقة بين المشرق والمغرب على الصعيد الثقافى: إن مؤرخى الأدب العربى فى المشرق لم يخصصوا ورقة واحدة لتاريخنا الأدبى من عهد الدولة الإدريسية إلى العهود الحديثة، وكأن الأدارسة والمرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين والعلويين كانوا فقط جحافل عسكرية ولم يصنعوا حضارات وثقافات متراكمة فى تاريخ المغرب.

لكن صوت الشاعر المغربي «هشام فهمي» الذي ينتمي إلى جماعة «المغارة الشعرية» التي يقيم معظم أعضائها في «مراكش»، جاء مخالفاً لصوت الشاعرين محمد بنيس وحسن نجمي: بالنسبة لي، فإن سؤال علاقة المشرق بالمغرب هو سؤال العلاقة بالذات أصلاً، علاقة بذات تتجاهل نفسها وتغض النظر عن ملامحها العميقة بدعوى قيادة المركز وحضوره وغياب الهامش. وهنا - برأيي - يتم تغليف صراع إقليمي بالتركيز على ثنائية مشرق - مغرب، القاتلة والواهمة، هذه الثنائية التي تفترض وجود كتلتين متعارضتين، الواحدة تنهش الأخرى بمنطق الزعامة والهيمنة.

لو عدنا إلى الوراء - يقول الشاعر المغربي «هشام فهمي» - لوجدنا «ابن بطوطة» و«الحسن الوزان» (ليون الإفريقي) يشدان الرحال باتجاه الذات الشاسعة للاقتراب من أنفاسها الأكثر حرارة، وهذا درس أظن أننا لم نستفد منه بعد، ولوجدنا كذلك إشارات نلاحظها عند «ابن خلدون» تحاول ملامسة الذات من خلال صورة الآخر.

رأيت «طارق بن زياد» على شاطئ البحر المحيط

كل

هذا البهاء الذى أستشعره بداخلى ، ويملك على كل حواسى ،
وأنا أركض فى فضاءات المدن المغربية ، هل يسمح لى بأن أنعم
برحيل هادئ عندما تحين ساعة الرحيل عن شمس المغرب؟ ، أكاد أجزم
أن ألوان وأصوات وروائح المغرب لن تغادرنى عندما لا يكون هناك مفر
من المغادرة والعودة إلى المستقر.

كل هذا البهاء من حولى الذى ينساب فى خلاياى ، ويسرى مسرى
الدم فى عروقى ، أخاله يهتف بى أن أطلق روحى من عقالها لتجول
رشيقة خفيفة فى الأعلى ، تنهل من رشات رحيق القلب الموسيقى
المحتجب هناك خلف الغمام الأبيض النقى.

هنا عند أبعد نقطة إلى جهة الغرب ، تداعب فيها موجة البحر
المحيط الأطلسى بياض رمال شاطئ «أغادير» ، وتحلق فى سمائها
الزرقاء سراب النعام الوردى ، تطفز من عيني العبرات ، وأنا أستذكر
كلمات ترجمها الشاعر المصرى «إبراهيم ناجى» عن الفرنسية للشاعر
«شارل بودلير» :

ما أسعد الذى له جناح قوى

يطير به حيث الضوء والهدوء

ذلك الذى تشبه أفكاره أفكار العاصف
التي تطير نحو السماء فى أسراب
ذلك الذى يحلق فوق الحياة ويفهم فى غير عناء
لغة الزهور والأشياء الصامتة.
يعلو صوت الضجيج الأرضى على الصوت السماوى العذب المزوج
بألوان قوس قزح ، ويسقط قلبى الموسيقى المحلق فى الأعلى داخل
صدرى مثل عصفور فى قفص. بشر من كل جنس ولون يجلسون إلى
موائد طعام ، أقامها الفندق الكبير الباذخ فى الهواء الطلق ، وتحت
شمس «أغادير» التي توشك على الأفول والرحيل والسقوط الدامى فى
مياه البحر المحيط.

أصوات اصطكاك الملاعق والأشواك والسكاكين والأطباق والكؤوس ،
تختلط بصوت اللغات واللهجات والضحكات وموسيقى غربية وشرقية ،
على إيقاعاتها تتلوى أجساد الفتيات اللاتي كن هناك منذ ساعات قليلة
فى أعلى الجبل ، يقدمن عرضا باهرا للأزياء.

دائرة الرقص والموسيقى تجتذب إليها الجميع بلا استثناء. رجال
ونساء غزا الشيب شعر رءوسهم ، أنَّهُوا طعامهم ، قهبوا واقفين متجهين
إلى حلبة الرقص ، بعد أن نحوا جانبا تاج الوقار الذى كانوا يتحلون به.
إيقاعات موسيقى الشرق تهز أجساد أبناء الشرق والغرب على السواء ،
وتطرب لها الآذان. رجال من فرنسا وإيطاليا يتهافتون على الرقص
بصحبة الفتيات.

أتأمل المطعم الباذخ الذى أقيم فى الهواء الطلق تحت الشمس الغارية،
والمعرض الباهر للأزياء. وعلى خلفية المعمار المغربى الأندلسى وعناصر
الفولكلور المغربى الذى يتجلى فى قطع سجاد وأعمال نسيج وخزف
ومشغولات جلدية ونحاسية وأزياء، أرى رجالا ببشرة داكنة هنا
وهناك، سادرون فى وحدتهم وصمتهم، لا يكفون عن مواصلة العزف
على آلة «الجميرى»، تفتر ثغورهم عن شبح ابتسامة حزينة، عندما
يلقى عزفهم شيئا من اهتمام رواد الفندق من وجهاء العرب والأجانب،
يعبرون عنه بإلقاء قطع من النقود فى الإناء المجاور للعاكف السادر
فى صمته وحزنه ووحدته.

فى المنطقة الحدودية، بين ضجيج رواد الفندق الكبير
والقائمين على خدمتهم بكل إخلاص وطواعية، وبين مهرجان
الأضواء والظلال والألوان فى الفضاء الممتد والمتسع للشاطئ الرملى
الذى اصطبغ بألوان الغروب وقرص الشمس الأحمر الذى يلامس
البحر المحيط عند خط الأفق، أرى جمهرة من الفرسان السمر فى
ملابسهم البيضاء يعتلون سهوات الجياد العربية ويقبضون على بنادق
يشهرونها فى اتجاه البحر. يستحوذ المشهد على ناظرى، وأجدنى فى
حالة انجذاب إليه.

أقترب أكثر من المشهد فأخال نفسى وقد رجع بى الزمان إلى زمن
الفتوة والنضارة العربية، ذلك الفارس الذى يمسك بزمام جواده بيد

وبيده الأخرى يقبض على بندقيته ، توحى بشرته الداكنة وملامح وجهه الحادة بفارسان العرب والبربر (الأمازيغ) المسلمين فى شمال أفريقيا ، فى الوقت الذى تحول فيه الإسلام إلى دين وقومية ، وهو ما يرجع إليه منع وقوع خلاف بين العرب والبربر عبر مراحل التاريخ ، فى تلك المنطقة التى جعلت من الإسلام ديناً وقومية ، ومن الحضارة العربية خلفية أساسية لهما.

أنظر فى وجه الفارس من على بُعد ، وجه «طارق بن زياد» ، فتغمرنى موجة مفعمة بمشاعر العزة والفخر ، لكن عندما لم يعد بينى وبين الفارس الذى يعتلى صهوة جواده إلا أقل من متر واحد ، وجدته وحصانه ضعيفين هزيلين.

سألته أن يطلعنى على بندقيته ، فلم يتردد ، ولبى طلبى صاعراً ، وعندما أمسكت بالبندقية بين يدي ، هالنى حالتها الرثة وقدمها والصدأ الذى يعلوها . وسرعان ما انعقدت فى ذهنى مقارنة بين البندقية القديمة الصدئة وبين ذلك السيف الذى كان يحارب به الفارس القديم طواحين الهواء بلا جدوى ، ووجدتنى أردد كلمات قصيدة لى كنت قد كتبتها منذ أكثر من ثلاثين عاماً مضت :

لأنه المسافر الغرير فى صحراء الانتظار

يخاف نظرة الخواء من نوافذ القطار

لأنه يجالذ البكاء فى ارتعاشة الوداع

يخاف رفقة الصحاب

لأنه المغامر الجسور
يعتلى حصانه الهزيل
ملوحا بسيفه المكسور في الفضاء
يخوض كل معركة
يخاف دمة الرثاء
لأنه يسالم القضاء
يمارحه

لأنه يضاحك المأساة في أسي
يخاف أن يداهن القدر
لأنه المهرج الضحوك
من أكفكم وفي وجوهكم يعاقر الشراب
لأنه الذبيح رقصة الموات
من له بأن يكفه عن الغناء
من له بأن يكفهم عن التصفيق والهتاف
عله يناشد الدواء في البكاء

دبت الحركة والنشاط فجأة في الفارس ممتطيا حصانه، واشتدت
قبضتا يديه النحيلتين المعروقتين على مقود الحصان وعلى البندقية،
ومثله فعل كل أفراد مجموعة الفرسان، الذين تلقوا إشارة البدء في
العرض الذي سيقدمونه على الشاطئ لزوار الفندق الكبير
مثل عاصفة أملت بصحراء، جرى عرض الفروسية، الأعيرة النارية

تنطلق من البنادق القديمة الصدئة ، والفرسان على صهوات جيادهم ينطلقون على رمال الشاطئ ، على نحو خيّل لي أنهم فى حرب ضروس مع أشباح مقاتلين أشداء. فى جعبة الفارس الكثير من الحركات الخطرة التى يؤديها الواحدة بعد الأخرى معتليا ظهر حصانه أو مترجلا عنه بينما الحصان يطلق سيقانه للريح. حركات خطيرة تقترب بالفارس من وضعية مهرج السيرك الذى يدعى الجهل بما يقوم به زملاؤه اللاعبون ثم يفاجئ الجمهور بنجاحه فى أداء ربما أكثر الحركات خطورة ، عندما يجد نفسه مضطرا إلى ذلك.

ينتهى عرض الفروسية ويعود الفرسان إلى الطرف القصى الذى كانوا قابعين فيه قبل أن يصدر إليهم الأمر بالبدء فى تقديم فقرة استعراضية لامتاع نزلاء الفندق ، الذين يجلسون فى استرخاء ، بعدما أفرطوا فى تناول مختلف أنواع الطعام ، الذى اصطف فوق المناضد الطويلة الممتدة فى خطوط مستقيمة ومتعامدة ، وفى التهام الحلويات المغربية التى أظهروا ضعفا واضحا تجاهها.

عدت من جديد إلى الفارس الذى تبادلت معه أطراف الحديث قبل العرض ، وبينما كنت أود أن أطرى مهارته التى أبداهها فوق صهوة حصانه ، فوجئت بارتفاع صوت لهائه ، ورأيت صدره يرتفع وينخفض ، وعرقا غزيرا يتصبب من جبهته ورقبته. تقدمت من الفارس مستفسرا عما إذا كان قد ألم به تعب أو إرهاق ، إلا أنه أجابنى بقوله : لا شىء سيدى.

اللون الرمادى يغلب على المشهد الدامى الذى صاحب سقوط قرص
الشمس واختفائه فى مياه البحر المحيط. تذكرت سقوط غرناطة وحضارة
العرب وعبد الله الصغير آخر ملوك العرب فى إسبانيا ، وتذكرت تغريبة
العرب الذين أجبروا على الرحيل من إسبانيا ، وعبروا مضيق جبل
طارق إلى المغرب وتونس ومصر ، ربما على سفن لا تختلف كثيرا عن
تلك السفن التى أحرقها «طارق بن زياد» بعد أن عبر بها إلى الساحل
الشمالى الأوروبى ، مخاطبا جنوده العرب والبربر : العدو أمامكم
والبحر من ورائكم.